(٢٣) عتبة بن أسيد رضي الله عنه

« **ويلُ أمه، مسعر**[1] **حرب لو كان معه رجال**» هكذا قال رسول الله ﷺ عن أبى بصير عتبة بن أسيد رضي الله عنه .

هو أحد الصحابة الأجلاء، وقد ناله ما نال غيره من العذاب الشديد والإيذاء البليغ، وكغيره أيضًا لم يهن، ولم يلن، ولم يعط كلمة الكفر، بل ظل على الحق ثابتًا، وبه متمسكًا. هاجر الصحابة إلى المدينة المنورة، أما هو فلم يهاجر، فقد حبسه أهله ومنعوه من الهجرة، وضاعفوا عليه العذاب، عسى الوحدة مع العذاب أن يردانه إلى دين الآباء والأجداد، ولكن من ذاق طعم الإيمان يكره أن يعود إلى الكفرة كما يكره أن يقذف فى النار .

فاته شرف حمل السلاح بجوار النبى ﷺ ، ولم يفته الجهاد فى سبيل الله تعالى، فهو السبب المباشر لإسقاط أحد شروط صلح الحديبية، ويتضح ذلك من خلال مطالعتنا للمحة من حياته .

* * *

تحمّل كغيره الإيذاء الواقع عليه، ولكن الإبتلاء انتهى لأغلب المستضعفين بهجرتهم إلى المدينة المنورة، وبقى عتبة بن أسيد وآخرون دون هجرة، فقد حيل بينهم وبينها .

كان أبو بصير يتحرّق شوقًا إلى المدينة المنورة حيث صحبة الرسول ﷺ والجهاد معه، ولكن ما حيلته وقد مُنع من ذلك وحُددت إقامته بمكة المكرمة؟!

أو بتعبير آخر اعتقل فيها، والذى زاد من قسوة المحنة عليه سماعه بانتصارات المسلمين فى بدر والخندق وغيرهما، ويود لو كان مع إخوانه يشارك فى النصر بسيفه، ويتأثر ممن آذى المسلمين ووقف حجر عثرة فى طريق نور الإسلام، أو يحظى بشهادة ينعم بعدها بالفردوس الأعلى .

وقد حاول المحبوسون فى مكة الهرب منها، ولكن محاولاتهم تحطمت على

(1) مسعّر : موقد أو مشعل .

صخور يقظة قريش، وإحكام قبضتها، وتوالت الأحداث واللقاءات بين المسلمين ومشركى مكة، حتى وصلت إلى صلح الحديبية فى العام السادس للهجرة .

* * *

خرج رسول الله ﷺ فى نحو ألف وخمسمائة من أصحابه يريدون العمرة، وأخذوا معهم الهَدْى[1] والسيوف فى أغمادها[2] ولما علمت قريش بمسيرهم أقسموا وتعاهدوا ألا يدخل عليهم المسلمون مكة عَنْوة[3]، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلّو بينى وبين سائر العرب**». ثم نزل بصحابته بمكان قرب مكة يسمى الحديبية، فأرسلت إليه قريش تسأله ماذا يريد. فأخبرهم ﷺ أنه جاء زائرًا للبيت، معتمرًا ومعظمًا لحرمته، ولم يأت لقتال، فرفضت قريش ذلك خشية أن تتحدث العرب وتقول إن محمدًا دخل مكة على أهلها عنوة، ثم أرسلت قريش رسلها رسولاً تلو رسول حتى تم الاتفاق بين المسلمين بقيادة الرسول ﷺ وبين سهيل بين عمر رسول قريش على شروط صلح بينهما سمى بصلح الحديبية، **وكانت الشروط الأربعة هى:**

(1) – أن يرجع النبى ﷺ والمسلمون عن مكة هذا العام، ويعودون إليها العام القادم، فيقيمون بها ثلاثة أيام، وليس معهم إلا سلاح الراكب.

(2) – وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمنون فيها ويكف بعضهم عن بعض.

(3) من أراد أن يدخل فى حلف مع محمد ﷺ دخل فيه، ومن أراد أن يدخل فى حلف مع قريش دخل فيه.

(4) – من أتى المسلمين بالمدينة من قريش مسلمًا بغيرإذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا مرتدًا عن الإسلام لا يردوه.

وأثناء كتابة شروط الصلح جاء أحد المحبوسين بمكة، وهو أبو جندل بن سهيل بن عمرو، أفلت من محبسه، وجاء بقيوده إلى المسلمين إخوانه ليأخذونه معهم إلى

---

(1) الهدى: ما يهديه الحاج أو المعتمر من الإبل أو الشياه.

(2) أغماد: جمع غمد، وهو غلاف السيف.

(3) عَنْوة: كرهًا دون إرادة.

المدينة، ويخلصونه مما فيه، ولم تُجْد محاولات النبى ﷺ مع سهيل بن عمرو أن يترك له أبا جندل خاصة وأن الإتفاق لَم تكتمل كتابته ولم يُوَقّع. لكن سهيلاً رفض وهدد بعدم إبرام الإتفاق.

فعندئذ أوصاه الرسول ﷺ: **« يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا»**

وعاد أبو جندل رضي الله عنه مع أبيه إلى مكة.

ورأى بعض الصحابة أن فى الشرط الأخير ضياع لحقهم، وأرّقهم هذا الشرط، إذ كيف يردون من جاءهم من إخوانهم إلى الكفار يعذبونهم ويفتنونهم فى دينهم، ولكن الرسول ﷺ يعلم أنه عبد الله ورسوله ولن يخالف أمره تعالى ولن يضيعه، وأن هذا فتح أو بداية الفتح.

والعجيب أن قريشًا بعد فترة هى التى طلبت من رسول الله ﷺ إسقاط هذا الشرط. وكان ذلك بسبب ما قام به أبو بصير مع بعض إخوانه.

***

عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة، وبعد مدة أفلت أبو بصير عتبة بن أسيد رضي الله عنه من محبسه بمكة المكرمة، وقدم على رسول الله ﷺ المدينة، فأرسلت قريش خلفه كتابًا مع رجل من بنى عامر ومولاً له يسمى كوثر، ولما وصل الرجلان إلى المدينة المنورة بالكتاب وعلم رسول الله ﷺ أن قريشًا تطالبه بتطبيق الشرط الرابع من شروط الصلح بينهما، وعليه أن يرد أبا بصير مع الرجلين إلى مكة المكرمة.

فأمر أبا بصير رضي الله عنه: **«يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصح فى ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، فانطلق إلى قومك»**. فقال أبو بصير: يا رسول الله، أتردنى إلى المشركين يفتنوننى فى دينى؟!. قال ﷺ: **«يا أبا بصير انطلق فإن الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا »**

أطاع أبو بصير رضي الله عنه الأمر وانطلق مع الرجلين عائدين جميعًا إلى مكة المكرمة، وفى الطريق عند مكان يسمى ذو الحليفة جلس الجميع يستريحون من عناء السفر. فسأل أبو بصير رضي الله عنه الرجل العامرى بعد أن اطمأن إليه: أصارم[1] سيفك هذا يا أخا بنى عامر؟ فقال العامرى: نعم، وهو شديد الصرامة.

فقال أبو بصير: أرنى أنظر إليه واختبره إن شئت. فأعطاه له، ولما أمسكه أبو بصير ضرب به الرجل العامرى فقتله، وفر مولاه كوثر سريعًا حتى النبى ﷺ وهو جالس فى المسجد.

فلما رأه رسول الله ﷺ خائفًا متغير الوجه قال: إن هذا الرجل قد رأى فزعًا، ثم سأله: ويحك! مالك. فأجاب: قتل صاحبكم صاحبى وهرب، وإنى أخشى على نفسى القتل كصاحبى.

وما هى لحظة، وبينما الرجل يتحدث مع النبى ﷺ قدم أبو بصير على بعير الرجل العامرى متوشحًا بالسيف[2]. فأناخ البعير، ودخل المسجد، ووقف أمام رسول الله ﷺ، وقال له: يا رسول الله، وفّت ذمتك، وأدى الله عنك، وقد أسلمتنى[3] بيد القوم تنفيذًا للشرط والعهد، وقد امتنعت بدينى أن أفتن فيه. فالتفت النبى ﷺ إلى كوثر ذلك المولى وسأله إن كان يستطيع وحده أن يعود بأبى بصير إلى مكة، فأجابه أنه لا يستطيع، وأنه يخاف على نفسه منه. فأمر رسول الله ﷺ أبا بصير رضي الله عنه بالإنصراف حيث شاء.

خرج أبو بصير رضي الله عنه ونزل فى مكان يسمى «العيص» على ساحل البحر بطريق الشام، وهى الطريق التى تسلكها قريش فى رحلاتها التجارية.

بعد انصراف أبى بصير رضي الله عنه قال عنه رسول الله ﷺ: « **ويل أمه، مسعّر حرب لو كان معه رجال**» وبلغ المسلمون الذين كانوا قد حبسوا فى مكة هذا القول، فاجتهدوا حتى أفلتوا من محبسهم، ولحقوا بأبى بصير رضي الله عنه، وكانوا قريبًا من سبعين رجلاً،

---

(1) صارم: حاد وقاطع.

(2) متوحشًا بالسيف: تقلده وعلقه عليه.

(3) أسلمتنى: سلمتنى ودفعتنى إليهم.

منهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو، فنظموا أنفسهم، ووضعوا خطة محكمة للثأر من قريش يستردون بها بعض أموال المسلمين التى تركوها فى مكة، وهذه الخطة، بل هذا الحصار الذى ضربته هذه الفئة المؤمنة هى التى جعلت قريش تطالب بإبطال الشرط الرابع من شروط صلح الحديبية الذى طالما أرّق المسلمين.

***

تولى قيادة الجماعة أبو بصير رضي الله عنه، فكان يصدر التعليمات، ويؤمهم فى الصلاة، ويعلمهم أحكام الدين وشرائعه التى تصل إليهم عن طريق الذاهبين والآيبين من المسلمين، حسبما يتسير لهم.

وقامت خطة هذه الفئة على اعتراض طريق القوافل التجارية لقريش، والتضييق عليها وحصارها اقتصاديًا حتى تكف عن المسلمين، وهم إنما يفعلون ذلك من أنفسهم دون أن يكون لدولة الإسلام بالمدينة المنورة أى دور، فكانوا لا يظفرون برجل من قريش إلا قتلوه، ولا تمر بهم قافلة إلا اقتطعوها واستولوا عليها.

وظل الحال كذلك حتى ضجّت قريش وكتبت إلى رسول الله ﷺ تسأله بالله والرحم أن يكف عنهم أبا بصير وجماعته، وأن يأخذهم عنده فى المدينة فليسوا فى حاجة إليهم.

بعث الرسول ﷺ كتابًا إلى أبى بصير رضي الله عنه يأمره بالكف عن التعرض لقوافل قريش، وأن يعود بإخوانه إلى المدينة المنورة.

أثناء وصول الكتاب كان أبو بصير رضي الله عنه مريضًا، وعند وصول الكتاب كان قد توفى، وتولى دفنه أبو جندل رضي الله عنه الذى عاد بجماعة المسلمين هذه إلى المدينة المنورة. رضى الله تعالى عن أبى بصير عتبه بن أسيد ذلك الصحابى الذى كان سببًا فى إسقاط أحد شروط صلح الحديبية، فبعد أن كان من يأتى المسلمين من قريش مسلمًا بغير إذن وليه يلزم المسلمون برده، أصبح أنه من أتى المسلمين قريش مسلمًا لا يرده المسلمون إليهم.

فرحم الله أبا بصير رضي الله عنه ذلك الصابر المحتسب والبطل الشجاع...